١

فى العصر الجاهلى

يحسن قبل التحدث عن الشعر فى العصر الجاهلى أن نشير إلى أنه كانت هناك لغة عامة متداولة فى غربى الجزيرة العربية وشرقيها وشماليها وأواسطها ، هى اللغة الفصحى التى نتحدث بها اليوم ، وكانت لغةَ قريش سادت بين القبائل فى الجزيرة العربية قبل الإسلام . وأكبر الدلالة على ذلك أننا نجد شعراء الحجاز فى مدنه وبواديه وشعراء نجد وطيِّئ وغسّان وقُضاعة فى الشمال وشعراء شرقى الجزيرة فى عبد القيس وتميم وبكر وتغلب والعباديين سكان الحيرة وشعراء اليمامة ، كل هؤلاء ينظمون أشعارهم بلغة واحدة ، هى الفصحى ، واتسعت موجاتها فشملت بعض القبائل فى الجنوب مثل بنى عبد الحارث سكان نجران وقبائل الأزد فى جنوبى الحجاز .

ويحاول المستشرقون جاهدين القولَ بأن هذه اللغة الفصحى كانت مزيجًا من لهجات أهل نجد ومن جاورهم ، أو أنها كانت لغة قبائل معد ، أو أنها تركبت من لهجات القبائل فى الحجاز ونجد وإقليم الفرات ، أو أنها تولدت من إحدى اللهجات النجدية . وهى كلها أقوال لا يدعمها دليل ، وقد أرادوا بها أن يناقضوا أشد المناقضة ما ذهب إليه علماؤنا القدماء من أنها كانت لهجة قريش سادت فى الجزيرة . ومعروف أن سيادة إحدى اللهجات فى بيئة أو إقليم دون غيرها من اللهجات لابد أن تسندها زعامة سياسية أو روحية أو حضارية تهيئ لها تلك السيادة ، بحيث تصبح لغة الفكر والمشاعر لدى الجماعة الكبيرة . وإذا بحثنا عن زعامة لإحدى القبائل من تلك الزعامات أعيانا البحث ، بينما نجدها جميعًا ماثلة فى قريش فى الحقبة الجاهلية ، إذ كانت لها زعامة روحية على العرب ، فهى حارسة الكعبة بيت عبادتهم وآلهتهم وأصنامهم ، وكانت تجْبى من الحجاج القادمين سنويًا إلى الكعبة إتاوات ، كما كانت حاملة مفاتيح القوافل التجارية التى كانت تجوب الجزيرة جنوباً وشمالا وشرقاً ، مما وصل أهلها بالحضارتين الفارسية والرومية البيزنطية ،

مع احتفاظها باستقلالها وخروجها عن دائرتى النفوذ للفرس والبيزنطيين جميعاً . وكان العرب يجتمعون إلى أهلها سنوياً فى أسواقها وخاصة فى سوق عُكاظ ، وكل ذلك أتاح للهجتها — وهى مَهْوَى أفئدة العرب — أن تسود لهجاتهم وأن يتخذها الشعراء والخطباء والكهّان لساناً لهم .

ومما لا ريب فيه أنه كانت هناك لهجات كثيرة للقبائل ، فلكل قبيلة لهجتها الخاصة ، وفى كتب اللغة إشارات مختلفة إلى هذه اللهجات ، ومعروف أنه بقيت منها على ألسنة القبائل حتى القرن الثانى الهجرى بقايا سجلها اللغويون . ولكن هذه اللهجات لم يكن أصحابها يتخذونها أداة للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم ، إنما كانوا يتخذون الفصحى لغة قريش أداة لذلك ، فهى اللغة الأدبية العامة التى كان يجتمع عليها العرب فى الجزيرة لا فى الشمال والشرق والغرب والجنوب فى نجران وبين قبائل الأزد ، بل أيضاً فى أطراف اليمن وحضرموت وعُمان . ومما يثبت ذلك أن الوفود اليمنية التى وفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذكر أحد من الرواة أنها وجدت صعوبة فى التفاهم معه ، ولا أن مترجمين توسطوا بينها وبين الرسول فى الفهم والإفهام . وكان يرسل إلى اليمن ، كما كان يرسل إلى أنحاء الجزيرة ، دعاة يعظون الناس ويعلمونهم قواعد الدين الحنيف ، ولو أنهم لم يكونوا على معرفة واضحة بالفصحى لغة قريش لكان فى إرسال هؤلاء الدعاة لهم ضرب من العنت .

كانت هناك إذن فى العصر الجاهلى لغة أدبية سائدة بين القبائل العربية هى الفصحى ، وكان شعراؤهم وخطباؤهم وكهانهم وحكماؤهم يتحدثون بها مرتفعين عن لهجات قبائلهم . وأخذت هذه اللغة تغزو الحميرية فى اليمن ، واستولت على بعض أصقاعها فى الشمال . وكانت الفوارق بين هذه اللغة أو اللهجة الفصحى ولهجات القبائل المحيطة بقريش ضئيلة ، بينما كانت تتسع كلما ابتعدنا عن مكة جنوباً أو شرقاً أو شمالا . وقد يبدو غريباً أن يتخذ شعراء القبائل هذه اللهجة لساناً لهم ، تاركين لهجات قبائلهم الخاصة ، وكأننا فى حاجة إلى أن نعيد ما قلناه من أن القبائل فى الجزيرة جميعاً كانت تتخذ قريشاً قدوة لها لمكانتها الروحية والسياسية والاقتصادية ، مما جعلها تتخذ لسانها أداة لفكرها وأحاسيسها ، أداة

مشتركة تجتمع أفئدتها عليها ، فهى المثل الأعلى فى البيان والتعبير عن القلوب والعقول . وقد يقول قائل : كيف يتفق ذلك لكل شعراء الجزيرة فى الجاهلية ولا يشذ منهم أحد ينظم أشعاره بلهجة قبيلته ؟ وهو سؤال يبدو وجيهاً ، ولكن إذا عرضناه على تاريخ الشعر فى الجزيرة قديماً وحديثاً تبين بطلانه ، أما فى القديم وبالذات فى العصر الجاهلى فلم يحدث أن شذّ شاعر عن الجماعة ونَظم بلهجة قبيلته أشعاره ، وأما فى الحديث فإنه يعم فى عصرنا بالجزيرة شعر نَبطى ينظمه الشعراء فى أرجاء الجزيرة المختلفة : فى الشمال والشرق والغرب والجنوب ، وجميعه بلغة نبطية واحدة تخالف لغات القبائل أو قل لهجاتها المحلية . وهى صورة مطابقة تمام المطابقة لما حدث للفصحى فى الجاهلية ، إذ يتخذها جميع الشعراء النبطيين لغة لشعرهم ، على تباعد الشُّقَّة فى الجزيرة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب . والطريف أن الناس هنا وهناك يفهمون عنهم ما يقولون ، مع أنهم يتحدثون بلهجات عربية مخالفة ، بالضبط كما كان يحدث فى الجاهلية ، فالشعراء ينظمون بالفصحى والناس فى القبائل المختلفة من حولهم يفهمون عنهم ، مع أنهم يتخاطبون فى حياتهم اليومية بلهجات مخالفة . وهذا نفسه يلاحظ فى الفصحى لعصرنا فإن شعراء العالم العربى من الخليج إلى المحيط يتخذونها أداة للتعبير عن فكرهم ووجدانهم ، مع أن شعوبهم تتحدث بلغات عامية محلية كثيرة ، وهم أنفسهم يتحدثون فى حياتهم العاملة بهذه اللغات ، فلهم ولشعوبهم لغاتهم العامية الإقليمية ، ولهم فى الوقت نفسه لغة موحدة ترتفع عن هذه اللغات ، هى الفصحى التى تشبه عملة يتداولها شعراء العرب منذ القديم فى جميع بيئاتهم العربية .

وبذلك يتضح أن سيادة اللهجة القرشية على جميع لهجات القبائل العربية بحيث أصبحت اللغة الأدبية العامة فى العصر الجاهلى لا تُعَدُّ شيئاً مستغرباً ، فلها شواهد تؤكدها من الشعر النبطى الحديث ومن الشعر العربى المعاصر الذى يتخذها هى نفسها لسانه الشعرى . وبين أيدينا أشعار جاهلية مختلفة تدل على مدى إحساس الجاهليين بانتشار ما كانوا ينظمونه من الفصحى فى القبائل العربية وشيوعه بين أبنائها فى كل مكان ، يقول المسيَّب بن عَلَس :

فلأُهْدِيَنَّ مع الرياح قصيدةً منى مُغلْغَلةً إلى القَعْقــاع
تردُ المياه فما تزال غريبةً فى القــوم بين تمثُّلٍ وسماع

فقصيدته إلى القعقاع تطير فى الجزيرة طيران الرياح ، متغلغلة سالكة إلى الناس سبلا قريبة وبعيدة ، وما تزال متنقلة من ماء إلى ماء ومن حىٍّ إلى حىٍّ ، والناس منهم من يستمع إليها معجباً، ومنهم من لا يزال يردّدها وينشدهامرة بعد مرة. ونرى شاعراً جاهليًّا يهجو عشيرته ثم يندم ندمًا شديداً ، لأن هجاءه ذاعت أبياته فى العرب ، ولم يعد من الممكن له أن يرجع ذمه لها وهجاءه ، يقول :

ندِمْتُ على شتْمِ العَشيرةِ بعد ما مَضتْ واستتبَّتْ للرواة مذاهِبُهْ
فأصبحتُ لا أسْطِيعُ دَفْعًا لما مضى كما لا يردُّ الدَّرَّ فى الضَّرْع حالِبُهْ

فالشعر الذى ينشده شاعر ينتشر فى القبائل ، ولا يمكنه أن يرده ، كما لا يمكن أن يُرَدّ اللبن بعد حلْبه إلى ضَرْعه ، إذ سرعان ما يتلقفه أبناء القبائل عن الشاعر ، وسرعان ما ينشرونه ويشيعونه فى كل مكان . وكان مما يساعد فى شيوع الشعر وانتشاره أن ينشده أصحابه فى مجامع العرب وأسواقهم التى كان يختلف إليها كثير من أفراد القبائل ، فكانوا يستظهرون ما يسمعونه أو بعضه ويعودون به إلى قبائلهم فيذيعونه فيها . واشتهرت أسواق مكة ، وخاصة سوق عُكاظ ، بما كان يُلْقَى فيها من قصائد وخطب ، وكانت سوقًا أدبية كما كانت سوقًا تجارية كبيرة ، وكانت تقام فى أثناء حج القبائل إلى الكعبة من كل عام ، فكان يجتمع فيها كثيرون من أرجاء الجزيرة وكان يجتمع فيها الشعراء من مختلف القبائل . وكثيراً ما كان يتنافس شبابهم ويعرضون أشعارهم على ذوى النباهة من شيوخ الشعراء ليحكموا بينهم أيهم أشعر، وكان ذلك يحدث نشاطاً شعريًّا طريفاً، فالناس يستمعون إلى ما ينشد كل شاعر بين يدى الشاعر الكبير ، ويعودون إلى قبائلهم وعشائرهم فيروون لها قصص هذه المنافسات وأى الشعراء حُكم له بالتفوق على أنداده .

ولم تحتفظ كتب الأدب بهذه المنافسات وما اتصل بها من حكومات بين الشعراء إلا ما كان للنابغة الذبيانى ، وكانت شهرته قد دوّت فى الجزيرة ، فكانت تُضْرَبُ له قُبَّة من أدَمٍ (جلد) بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فيعرضون عليه

أشعارهم ، فمن ذلك أن الأعشى شاعر اليمامة أنشده بعض شعره ثم أنشده حسان بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساء ، فى رثاء أخيها صخر :

وإن صَخْرًا لتأْتَمُّ الهُدَاةُ بهِ كأنه عَلمٌ فى رأســه نارُ

فقال لها النابغة : والله لولا أن الأعشى أنشدنى آنفاً لقلت إنك أشعر الجن والإنس ، فقام حسان غاضباً ، فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال له النابغة : يا بن أخى إنك لا تحسن إحسان الأعشى .

وهذا الخبر واسع الدلالة على ما كان يحدث فى عُكاظ من منافسات بين الشعراء وحكومات على أشعارهم ؛ وأيضاً هو واسع الدلالة على الوحدة الشعرية فى الجزيرة حينئذ. فهذا النابغة من نجد والأعشى من اليمامة وحسان من المدينة والخنساء من نجد ، وجميعاً يمثلون هذه الوحدة التى عمت بين جميع الشعراء فى الجزيرة ، وحدة اللغة ووحدة المشاعر. ومما يصور هذه الوحدة أن نجد شاعراً من شرق الجزيرة يسمى راشد بن شهاب اليَشْكرى يتهدد قيس بن مسعود الشيبانى ويتوعده قائلا :

ولا تُوعِدنِّى إننى إن تُلاقنى معى مَشْرَفِىٌّ فى مضاربهِ قَضَمْ
وذمٌّ يُغشِّى المرءَ خِزيًا ورَهْطَهُ لدى السَّرْحَةِ العَشَّاءِ فى ظلِّها الأَدَمْ

وهو يخيف قيساً من مشرفيه أو سيفه وما به من قضَم أو فلول من كثرة طعناته المصمية فى الحروب ، وأهم من ذلك فيما نحن بصدده أنه يخيفه من سهام هجائه وما يلطخه به من خزى وعار حين ينشده فى عكاظ لدى السَّرْحة العَشَّاء أو الشجرة العظيمة حيث تقام تلك السوق المشهورة ويضرب العرب قباب الأدم وخيامه وتجتمع العشائر من أنحاء الجزيرة مستمعة إلى كل ما يلقيه الشعراء هناك من أشعار وأهاج مقذعة ، ويحملون ذلك إلى قبائلهم فترويه بدورها ، وسرعان ما يسير الهجاء ، ويلحق المهجوّ وعشيرته منه عار الأبد. وكأنما كانت سوق عُكاظ فى رأى راشد اليشكرى أكبر دار لإذاعة الشعر فى عصره ، فما أنشد بها منه كانت تتداوله القبائل فى كل حى وفى كل مكان .

وطبيعى أن سوق عكاظ كانت تستمد نشاطها الشعرى من قريش لا لمكانتها

الروحية فحسب ، بل أيضاً لأنها صاحبة الفصحى التى اتخذها الشعراء فى الجزيرة — أينما ولَّيت وجهك — وسيلتهم للتعبير عن خواطرهم وخلجات نفوسهم ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى من أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش فما قبلته منها كان مقبولا وما ردتَّه منها كان مردوداً ، ويقال إن علقمة بن عَبَدَة التميمى أنشدها عاماً قصيدته : « هل ما علمت وما استودعتَ مكتوم » فقالوا له : «هذه سِمْط (عِقْد) الدهر» ثم عاد إليهم فى العام القابل ، فأنشدهم قصيدته : « طَحَا بك قلبٌ فى الحسان طَرُوبُ » فقالوا : « هى وأختها السابقة سِمْطا الدهر » ودوَّت بذلك شهرته فى الجزيرة .

ونحن إنما نريد أن نخلص من ذلك كله إلى أنه كانت للشعر الجاهلى لغة عامة واحدة هى لهجة قريش التى سُمِّيت فيما بعد بالفصحى ، وأن هذه اللغة المشتركة أتاحت للشعر الجاهلى دوراناً وانتشاراً واسعاً حينذاك ، فقد كان يُرْوَى ويُنْشَد فى كل قبيلة وعلى كل لسان ، ولذلك كان طبيعياً أن يحتكم الشعراء من أمثال علقمة بن عبدة إلى أصحاب هذه اللغة ليجيزوهم ويفرضوهم على شعراء الجزيرة . ولم تكتف قريش بذلك فقد تحولت بسوقها عكاظ من سوق تجارية إلى سوق أدبية كبيرة يتنافس فيها الشعراء ويحتكمون تارة إلى بعض النابهين من قريش وتارة إلى بعض النابهين من شعراء العرب الذين خلبوا ألباب الناس بأشعارهم .

وهذه اللغة العامة التى شاعت فى العصر الجاهلى هى التى أتاحت للشعر فى الجاهلية أن يحمل طوابع شعبية ، وهى طوابع تلاحظ فيه من جوانب كثيرة ، سواء من حيث الجماعات التى تنشده أو من حيث الأفراد الذين ينظمونه . أما الجماعات فلعل من أهم ما كانت تشترك فيه التراتيل الدينية فى أثناء الحج والطواف ، فقد كانت القبائل تَتَقَدُّمُ إلى الكعبة سنوياً للحج منشدة أناشيد دينية مختلفة سموها باسم التَّلْبِيَة ، وكان لكل قبيلة تلبيتها الخاصة ، وفى القرآن الكريم : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاءً وتَصْدِيَةً) والمكاء : الصفير ، والتصدية : التصفيق . وسمَّوا الغناء الذى كان يصحب هذه التصدية وذاك الصَّفير باسم « النَّصْب » أخذاً أو اشتقاقاً من النُّصُب وهى الأوثان وكل ما نُصب وعُبد من دون الله ، وفى الحديث النبوى : « كلهم كان يَنْصِبُ » أى يغنى غناء النَّصْب

فى تلبياته وتهليلاته للآلهة . وفى كتاب الأصنام لابن الكلبي صور مختلفة لتلبيات القبائل فى الجاهلية . ويقول أبو العلاء المعرى فى رسالة الغفران : « جاءتْ تلبيات العرب على ثلاثة أنواع ، مسجوع لاوزن له ، ومنهوك ، ومشطور » ويسوق أمثلة للنوع المسجوع ، ويتبعها بأمثلة للرجز المنهوك أو المجزوء من مثل تلبية قبيلة النَّمِر :

لبَّيْك يا مُعْطِى الأَمِر لبَّيْك عن بنى النَّمِرْ
جئناك فى العام الزَّمِرْ نأمل غَيْثًا يَنْهَمِرْ
يطرق بالسَّيْل الخَمِرْ

والزمر : المجدب . والخمر : الشجر الملتفّ . فهم يطلبون من ربهم أو إلههم أن يدفع عنهم القحط والجدب المميت ، وينزل عليهم السماء مدراراً ، فتحيي أرضهم بعد ممات وتنبت الزرع والنبات . ويُدْخل أبو العلاء فى المنهوك من التلبيات ما يجئ مجزوءًا على وزن المنسرح ، وينشد منه تلبية قبيلة هَمْدان :

لبَّيْك ربٌّ هَمْدانْ مِنْ شاحطٍ ومن دانْ
جئناك نبغى الإحسانْ بكل حَرْفٍ مِذْعانْ
نطوى إليك الغِيطانْ نأملُ فضل الغفرانْ

والشاحط : البعيد . والحرف : الناقة . يكنون بذلك عن بُعْد الشُّقَّة بين منازل قبيلتهم فى شمالى اليمن وبين الكعبة وما تجشموه من عناء شاق . ويذكر أبو العلاء تلبيات أخرى على قواف مختلفة ، منها تلبية لقبيلة بكر وثانية لبنى تميم وثالثة لبنى سعد على هذا النمط :

لَبَّيْكَ عن سَعْدٍ وعن بَنيها وعن نساء خلْفَها تَعْنِيها
سارتْ إلى الرحمة تَجْتَنِيها

ويلاحظ أبو العلاء أن المطَّرد عند العرب فى التلبية أن تكون من الرجز وأنها إذا نُظمت من أوزان القصيد حذفت منها بعض أجزائها ، يقول : « ولم تأت التلبية بالقصيد (يريد تام الأجزاء) ، ولعلهم قد لَبَّوا به ، ولم تنقله الرواة » لطوله أو لعدم

اهتمامهم به. وفى كتاب المحبَّر لابن حبيب فصل طويل عن تلبيات القبائل للأصنام والأوثان ، من ذلك تلبية حجاج اللاَّت : لَّبيك اللهم لبيك :

كفى [لنا] بِبَيْتنا بَنِيَّهْ ليس بمهجـــورٍ ولا بليَّهْ
لكنه من تربـــةٍ زكيَّهْ أربابُه من صالحى البَـريَّهْ

وكان بيت اللات بالطائف على صخرة ، وكانت قبيلة ثقيف تضاهى به بيت الكعبة ، وكان له حَجَبَة وكسوة . وكان لتميم صنم يُعرَف باسم « شُمس » وكان له بيت ، وكانت تلبية من نسك له من حجيجه : لبيك اللهم لبيك :

لبَّيْك ما نهارُنا نجـــرُهُ إدْلاجـه وحَـــرُّه وقَرُّهُ
لا نتقى شيئا ولا نضـــرُّهُ حَجًّا لربٍّ مســـتقيم بِرُّهُ

وكان صنم « مناة » بشاطئ بحر القلزم أو البحر الأحمر ، وكانت تعبده قبيلة الأزد اليمنية والأنصار أهل المدينة ، وكانت تلبيتهم له : لبَّيك اللهم لَّبيك :

يَبَرُّك النـــاس ويَهْجُرونكا مازال منا عَجَجٌ يأتونكا
إنا على عُدْوَانهم من دونكا

والعجج : الجماعة الكبيرة من الناس . وكان لبكر وسائر ربيعة صنم ينسكون له يسمى « المحرِّق » وكانت تلبيتهم له : لَّبيك اللهم لبيك :

لبَّيْك حَجًّـــا حَقًّـــا تعبُّـــدًا ورِقًّـــا

وكان أكبر أصنام قريش «هُبَل» صنم الكعبة الكبير ، وكانت تلبية من نسك له وقدَّم إليه قرابينه : لَّبيك اللهم :

لبَّيْك لبَّيْك فإننـــا لَقاحْ حَرَّمتنا على أســـنَّة الرِّماح
يحسدنا الناس على [ذاك] النجاح

واللِّقاح : الذين لم يدينوا قط لأحد ، ومعروف أن قريشاً كانت لَقاحًا فى الجاهلية ، فلم يصب أحداً منها سباء ، ولم يستطع ملوك فارس وبيزنطة أن يفرضوا عليها ولاء ولا سيادة ، وكانت — ولا تزال — حرماً آمناً وحِمىً محرماً لا يراق فيها

دم ولا يُشْهر سلاح . ونكتفى بهذه التلبيات الشعرية ، وواضح أنها كانت تسهم فيها قبائل الجزيرة ، وأنها كانت تأخذ طابعاً جماعياً شعبياً ، ولم يكونوا ينشدونها فى الحج وحده ، بل كانت تنشدها أيضاً القبائل حين تفزع إلى آلهتها فى الشدة تستغيث بها ، حتى تنقذها مما ألم بها من الخطوب والكوارث .

ونجد للنساء حينئذ دوراً هاماً فى هذا الشعر الجماعى ، إذ كن يؤلفن فى حفلات الأعياد والأعراس وحين يظهر فى القبيلة شاعر كبير ما يشبه الجوقات فى ملاعب التمثيل ، فيرقصن ويلعبن على المزاهر وينشدن بعض الأغانى . وهذا فى السلم ، أما فى الحرب فكن يؤلفن جوقات تحمّس الرجال وتثير فيهم الحمية على نحو ما يُرْوَى عن هند بنت عُتْبة ونسوة من قريش فى غزوة أحُد ، إذ كن يضربن على الدفوف . وكانت هند تغنى فى تضاعيف هذا الضرب بمثل قولها :

إن تُقْبِلوا نعانقْ ونفْرِشِ النَّمارقْ
أو تدبروا نفارقْ فراقَ غيرِ وامق

وتردّ عليها النسوة . وهن يعلنّ إلى الرجال من قريش أنهن يُكْرِمْنَهُمْ ويفرشْنَ لهم الوسائد إن استماتوا فى الحرب فإن فرّوا لم يبكوهن بل فارقوهن فراق غير المحبين . وكن حين يَعُدْن مع قبائلهن وعشائرهن من الوقائع والحروب يقمن مآتم كبيرة للشجعان ذوى البأس المقتولين ، وما يزلن يَنُحْنَ عليهم حفزاً للقبيلة كى تعود فتأخذ لهم بالثأر وتفتك بقاتليهم فتكاً ذريعاً . وتدل الأخبار المختلفة على أنه كان يشيع بين نساء الجاهلية فى نواحهم على القتلى ضَرْبٌ من « التعْديد » الذى نعرفه فى مآتم مصر . فما تزال امرأة تنوح ويردّد عليها صواحبها لاطمات نادبات مرددات بعض ما تقول . ومن مآتمهم المشهورة مأتم كُلَيْب التغلبىّ حين قتله صهره جَسّاس من بنى بكر ، ويقال إن نساء الحى قلن لأخته : رَحِّلى زوجته جليلة « أخت جساس » عن مأتمك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ، فتوجهت إليها قائلة : ياهذه اخرجى عن مأتمنا فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهى تندب وتنوح وتنادى بالويل لما سينشب بين تغلب وبكر من حروب ساحقة منشدة مولولةً :

يا قتيلا قوَّض الدهرُ بهِ سَقْفَ بيتيَّ جميعا من عَلِ
هدم البيتَ الذى استحدثتُه وانثنى فى هَدْم بيتى الأوَّل
خصَّنى قتلُ كليبٍ بِلظًى من ورائى ولظًى مُسْتقبَل

وكأنما ارتسمت فى خيالها الحروب الطويلة التى اندلعت بين القبيلتين الكبيرتين لمدة أربعين عاماً فيما يقال. ولم يكنَّ ينحن على قتلاهن يوماً أو أياماً، بل كن يزاولن ذلك سنوات حتى تأخذ القبيلة لهن بالثأر، وكن يندبنهم فى المواسم العظام على نحو ما يُرْوَى عن الخنساء، فقد كانت تخرج إلى سوق عكاظ فتندب أخويها صخراً ومعاوية ندبا حارًّا، وكانت تحكيها فى هذا الندب هند بنت عُتبة قتيل غزوة بدر.

وهذه الطوابع الشعبية التى تلاحظ فى شعر الجماعات من النساء والرجال تلتقى معها طوابع أخرى فى شعر الأفراد، لعل خير من يمثلها شعراء الحُداء، إذ كانوا يحدون الإبل فى أثناء سُراها ليلا بأراجيز وأشعار. وكان الرجز هو الغالب عليهم فى الحُداء حين ينتشر ظلام الليل ويُرْخى سُدوله على كل شىء فى الكون ويعمّ السكون والركود، حينئذ يعمد السارى فى الصحراء وراء بعيره أو فوق متنه إلى شطور من الرجز يجد فيها شيئاً من المتاع والنشاط حتى لا تضعف مُنتَّه وقوته. وكأنما كان يوقّع الجاهلى رجز حُدائه على حركة بعيره ووقع أقدامه فى الصحراء، وهو حُداء شعبى نجده فى كل مكان وعلى كل لسان. وكانوا يستخدمون هذا اللون من الرجز الشعبى فى كل عمل لهم يقتضى حركة متصلة، فهم يستخدمونه فى حروبهم، فلا يصول محارب ويجول فى ميدان جاهلى إلا وهو ينشد بعض الرجز أو بعض الشعر مستعيناً بذلك على الحركة والنشاط، وأمامنا حروبهم كحرب البَسُوس بين بكر وتغلب وكحرب داحس والغَبْراء بين عَبْس وذُبْيان فإننا لا نكاد نرى أحداً يُقبل على القتال إلا وهو يلوك أشعاراً رجزاً أو غير رجز. ودائماً الرجز هو الغالب. وبالمثل كانوا يصنعون ذلك حين يَسْتسقون لأنفسهم أو لإبلهم وأغنامهم من مورد عذب، وكذلك حين كانوا يحفرون بئراً. وفى كتاب فتوح البلدان للبلاذرى فصل طويل يعرض فيه الأرجاز التى نُظمت قبل الإسلام فى حفر آبار مكة، من ذلك حَفْر عبد شمس بئرين سماهما خُمًّا ورُمًّا، وفى ذلك يقول :

حفرتُ خُمًّا وحفرتُ رُمًّا حتى أرى المجد لنا قد تمَّا

وحَفَرَ قُصَيّ جد الرسول صلى الله عليه وسلم بئراً سماها العَجول ، وفى ذلك يقول أحد الرجاز :

نَرْوِى على العَجول ثم ننطلقْ قبل صدور الحاج من كل أُفقْ
إن قُصَيًّا قدوَفى وقد صدق بالشِّبْع للناس ورِىٌّ مُغْتبِق

وحفر هاشم بن عبد مناف بئراً سماها بذّر وأخرى سماها سَجْلة . وفى ذلك تقول صفية ابنة عبد المطلب مفاخرة مباهية :

نحن حفـــرنا بَذَّرا تروى الحجيجَ الأكبرا

وحفر بنو عدى عشيرة عمر بن الخطاب بئر الحفير ، وفى ذلك يقول راجزهم :

نحن حفرنا بئْرنا الحَفِيرا بحرًا يَجيشُ ماؤه غزيرا

وحفر عبد المطلب « زمزماً » البئر المشهورة بمكة حتى الآن .

ويتصل بأشعار الحركة الدائبة وأراجيزها ما اشتهر عن نساء الجاهلية من ترقيصهن لأطفالهن تدليلا لهم ولعباً معهم ومعابثة ، من مثل قول أم عقيل زوج أبى طالب ترقّص ابنها عَقيلا ، وهو لا يزال فى المهد وتلافيفه :

إن عَقيلا كاسمه عقيلُ وبأَبى الملفَّف المحمـــولُ
أنت تكون ماجدٌ نبيلُ إذا تهبُّ شمْأَلٌ بَلِيـــلُ

وعقيل كل شىء : أنفسه وأفضله . والشمأل : ريح شمالية باردة . وبليل : رطبة . ومن ذلك قول أم الفضل الهلالية ترقّص ابنها عبد الله بن العباس بن عبد المطلب :

ثكلتُ نفْسى وثكلت بِكرى إن لم يَسُدْ فِهْرًا وغير فِهْرِ
بالحَسب العِدِّ وبَذْل الوَفْرِ حتى يوارَى فى ضريح القبر

وقول ضُباعة بنت عامر ترقّص ابنها المغيرة بن سلمة المخزومى :

نَمى به إلى الذُّرَى هشامُ قرْمٌ وآبـــاءٌ له كرامُ
من آل مخزومٍ همُ الأعلام الهامةُ العَلْيـــاءُ والسَّنام

ولعل فيما قدمنا ما يدل على أن الشعر فى الجاهلية كان اللغة العامة لأهل الجزيرة ينظمونه فى الحركة السريعة وفى الفرح والحزن وفى الأدعية والابتهالات الدينية . وكان ينظمه رجالهم ونساؤهم ، كما كان ينظمه سادتهم وصعاليكهم ، بل إن صعاليكهم قد تتفوق أشعارهم على أشعار السادة كمًّا ، وإن أسماءهم لتتردد إلى اليوم على جميع الألسنة من مثل الشَّنْفَرى وتأبط شرًّا والسُّلَيْك بن السُّلَكة وعروة بن الوَرْد الذى اشتهر بأنه كان يؤثر فقراء قبيلته من بنى عَبْس بكل ما ينهب من إبل الأثرياء وأموالهم ، وله يقول مصوراً كرمه الفيَّاض وإيثاره البؤساء على نفسه :

إنى امرؤٌ عافى إنـائِىَ شِرْكةٌ وأنت امرؤٌ عافى إنائك واحدُ
أفرِّق جسمى فى جسومٍ كثيرةٍ وأحْسُو قرَاحَ الماء ، والماءُ باردُ

وهو يصور معنى إنسانيًّا مثاليًّا ، إذ لامه بعض أصحابه بأنه نحيل شاحب اللون ، فأجابه إن كثيرين من العفاة أو ذوى الحاجه أشركهم فى إنائى وطعامى ، أما أنت فلا تشرك أحداً معك ، ولذلك سمنتَ ، بينما نحلتُ وضمرت إذ أترك طعامى لكثيرين أفرِّق جسمى فى جسومهم مؤثراً لهم بطعامى رادًّا شراسة جوعى ومسغبتى مكتفيًا بشرب الماء البارد الصافى فى ليالى الشتاء القارسة . وقد خلَّف ديوانًا طريفاً من الشعر ، مثله فى ذلك مثل الشنفرى وتأبط شرًّا ، فأشعارهم ظل جيلهم والأجيال التالية له ترويها حتى دُوِّنت فى العصر العباسى .

وشركة جميع الطبقات والأفراد فى الشعر الجاهلى على هذا النحو تدل أوضح الدلالة على طوابعه الشعبية . إذ كان يصدر عن جميع أفراد الشعب فى الجزيرة ، لا فرق بين رجل وامرأة ولا بين شاب وشيخ ولا بين سيد ومملوك . وتكتظ كتب الأدب والطبقات بأسماء كثيرين من شعراء الجاهلية حتى ليفوتون الحصر والعدّ ، ولاحظ ذلك قديمًا ابن قتيبة ، إذ يقول : « الشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم فى الجاهلية والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط أو يقف من وراء عددهم

واقف ، ولو أنفد عمره فى التنقير عنهم واستفرغ مجهوده فى البحث والسؤال . ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعر قبيلة حتى لم يفته من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه ولا قصيدة إلا رواها » .

ومما يدل بقوة على الطوابع الشعبية للشعر الجاهلى تصويره خواطر الجاهليين وكل ما نبضت به قلوبهم فى السلم وفى الحرب . ومعروف أن الجزيرة استحالت فى الجاهلية إلى ما يشبه ميداناً كبيراً ما تزال تقتتل فيه القبائل ، وما تزال تتصايح فيه الأبطال وتُسَلّ السيوف وتصوَّب الرماح والنبال وتُدَق الأعناق والرءوس ، والوحوش تتخاطف الأشلاء والغةّ فى الدماء . وفى كل حى وفى كل دار يصرخ الرجال والنساء : الثأرَ الثأر ، فدائماً تحزّ الرقابَ سيوف وتطعن القلوب رماحٌ ودائماً دماء مسفوحة ، وبذلك كانت حياة الجاهليين حروبا مستمرة فكل قبيلة دائماً واترة موتورة أو قاتلة مقتولة ، وصوّر ذلك دُرَيْد بن الصِّمَّة أحد فرسانهم قائلا :

وإنا لَلَحْمُ السَّيفِ غيرَ نكيرةٍ ونُلْحِمه حيناً وليس بذى نُكْرِ
يُغار علينا واترين فيُشْتَفى بنا إن أُصِبْنا أو نُغير على وِتْر
قسمنا بذاك الدَّهْرَ شطْرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطْر

فهم دائماً طعام لسيوف أعدائهم ، وأعداؤهم طعام لسيوفهم ، فى غير إنكار ، فتلك حياتهم لا يزال الشجاع منهم يقاتل دون أن يلقى السلاح أو يستسلم ، حتى الموت الزؤام ، أو حتى يقتله الأعداء ، ففى ذلك شرفه ومجده . وكأنما أوقات دهرهم قسمان : قسم لانتصاراتهم على أعدائهم ، وقسم لانتصارات أعدائهم عليهم ، فحياتهم كلها حرب وقتال ، حتى ليصبح ذلك جزءًا لا يتجزأ من جوهر حياتهم ، بل إنه ليوشك أن يكون كل حياتهم ، ولذلك مظهر واضح فى أشعارهم : أن أكثرها يدور فى الحماسة مما جعل أبا تمام حين يؤلف مختاراته من الشعر الجاهلى وغير الجاهلى يسميها ديوان الحماسة تغليباً للموضوع الأساسى فى أشعار الجاهليين على غيره من موضوعات الشعر وأغراضه .

ومن المحقق أن الشاعر الجاهلى كان لسان قبيلته ، يسجل مآثرها ، ويتغنى بمفاخرها وأمجادها وعلى رأسها الأمجاد الحربية ، وكأنما كان بوقاً لها ، يعبّر عن

أهوائها وكل ما يجول فى خواطرها ، وصوَّر ذلك تصويرا قويًّا دُرَيْد بن الصِّمة شاعر عشيرة غَزِيَّة الذى ذكرناه آنفاً قائلا :

وهل أنا إلا من غَزِيَّةَ إن غوتْ غويتُ وإن تَرْشُدْ غزيَّةُ أَرْشُدِ

فرشده يستمده من عشيرته غزية وكذلك غَيّه ، وكأنما ليس لشاعر الجاهلية وجود مستقل عن عشيرته ، فهى تفرض نفسها عليه فرضاً أو قل إنه هو الذى يفرضها على نفسه ، ويتضح ذلك فى أشعاره التى لا تدور حول الحماسة فحسب ، وإنما تدور أيضًا حول الفخر ، إذ يفخر بوقائع قبيلته وانتصاراتها معدِّداً لها ، على نحو ما يلقانا فى معلقة عمرو بن كلثوم ، وهى زاخرة بروح عاتية تمثل الروح العربية خير تمثيل ، روح الفتوة والقوة والنفوس الصلبة التى لا تُعْصَرُ ولا تلين . ولم يمثلوا لنا فى أشعارهم قوتهم الحربية وحدها ، فقد مثَّلوا لنا أيضاً قوتهم أو بطولتهم الخلقية ، على نحو ما يلقانا عند بطلهم المشهور عنترة فى مثل قوله :

لا تَسْقنى ماء الحياة بذلَّةٍ بل فاسْقنى بالعِزِّ كأسَ الحَنْظلِ
ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وأظلّه حتى أنال به كريمَ المأْكل

فهو يرفض الذل ، بل إنه يرفض الحياة جميعها إن دخلتها أى شائبة منه ، أما العز فإنه مبتغاه ومناه وإنه ليقبل على كئوسه حتى لو كانت مليئة بنقيع الحنظل الذى لا يطاق . وهو يؤثر الطوى أو الجوع الشديد على تذوق الطعام الكريه الذى تعافه النفوس الأبية . وكان تجسيده فى أشعاره للبطولة العربية من وجهيها الحربى والخلقى سبباً فى أن ترفعه العصور التالية تمثالا لبطولة العرب وشعاراتها الرفيعة . ويكتب له المصريون فى العصر الفاطمى قصة ، يمتزج فيها السجع بالشعر تصوِّر بطولته ، وينمى المصريون القصة حتى تتخذ شكلها النهائى فى القرن السابع الهجرى ، وفيها يشارك عنترة العرب فى حروبهم ضد الفرس وبيزنطة وروما وفى الأندلس وفى الحروب الصليبية . وبذلك تصبح قصة عنترة إلياذة الأمجاد الحربية للعرب على مر العصور . ولا يهمنا الآن عنترة الأسطورة ، وإنما يهمنا عنترة الفارس الجاهلى الذى مثل بطولة الجاهليين الحربية والنفسية السلوكية تمثيلا قويًّا ، وقلما يوجد فى عصرنا من لا يحفظ له البيتين التاليين اللذين خاطب فيها محبوبته عَبْلة ابنة عمه :

ولقد ذكرتكِ والرماحُ نواهلٌ   منى وبيضُ الهند تقطُر من دَمِى
فوَدِدْتُ تقبيلَ السيوف لأنها   لمعتْ كبارق ثَغرِكِ المتبسِّم

وهى صورة رائعة لاستئثار حب عبْلة به ، حتى فى أحرج المواقف ، والرماح مصوّبة إليه من كل جانب ، والسيوف تكاد تنقضُّ عليه ، فذكراها لا تفارقه ولا تفارق ابتسامتها خياله ، حتى ليرى ثغرها من خلال تألق السيوف ، فيهمّ بتقبيلها. مفاجأة بديعة فى التخيل والتصور . وكان عنترة فى أشعاره مثله مثل جميع الشعراء الجاهليين يقدم دائماً بطولته الحربية لمحبوبته وأيضاً بطولته النفسية الخلقية . ولعله أقدم المحبين العذريين عند العرب ، وهو يعبر فى غزله لعبلة عن وجد ما بعده وجد وعذاب لا يشبهه عذاب . وذلك هو الحب العذرى الذى عُرف به العرب ، وهو حب يتحول إلى ما يشبه محنة لا يستطيع المحب تخلصاً منها ، حب كله ضَنًى وآلام . ولم يكن هذا هو الغالب على الحب الجاهلى ، بل كان الغالب الحب المادى على نحو ما نعرف عند امرىء القيس فى معلقته . ومعروف أن الشعر الجاهلى كان يحمل أغراضاً أخرى مثل الرثاء والمديح والهجاء . وكلها كانت توجَّه فى أكثر الأمر للجماعة ، أو قل كان الشاعر فيها يصدر عن الجماعة . فهو فى مراثيه إنما يقصد غالباً إلى استثارة الحمية بتأبينه القتلى ، حتى تهب القبيلة للأخذ بالثأر . وهو بالمثل فى مدائحه إنما يتغنى بأمجاد سادتها وأبطالها وما وضعوا على رأسها من أكاليل الغار . وكذلك الشأن فى أهاجيه فهو يحاول بها جاهداً أن ينزع عن قوس شعره سهاماً مسمومة لأعداء قبيلته ، ويقول الجاحظ : « لأمر ما بكت العرب بالدموع الغِزار من وقع الهجاء » والأمر معروف ، وهو ما ينزله الهجاء بالمهجوين من ذم مقذع تلوكه الألسنة فى مجالس القبائل والعشائر وفى الأسواق والمجامع .

وعلى هذا النحو كان الشاعر الجاهلى تعبيراً صادقاً عن قبيلته أكثر منه تعبيراً عن نفسه ، بل لعله لم يكن يعنيه أمر نفسه فى شىء ، حتى فى الغزل والحب كان يصور مشاعر الجماعة ، وخاصة الشعراء الذين لم يعرفوا بحب مثل زهير ، فنسيبه وغزله إنما هما تعبيران عن أحاسيس شعبية عامة . ولندع الأغراض الشعرية عند القوم إلى التأمل فى مطولاتهم أو قصائدهم الطويلة فإننا سنراها تتخذ منهجاً مرسوماً لا تحيد عنه يمنة ولا يسرة ، فهى تستهل بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار ، يشترك

فى ذلك جميع الشعراء، ثم يصف الشاعر رحلته فى الصحراء، وكثيراً مايشبه ناقته التى تحمله ببعض الحيوانات الوحشية ويستطرد إلى تصويرها، وقد يعرض مناظر الصيد بين الكلاب وبقر الوحش وثيرانه . ثم يخرج إلى الغرض من قصيدته حماسة أو فخراً أو مديحاً أو رثاء أو هجاء . وهذا المنهج الثابت للقصيدة الجاهلية فى كل مكان يدل بوضوح على أنها كانت عملا شعبيًّا جاهليًّا عامًّا، عملا ثبت فى نفوس صانعيه من كثرة تكراره تلقاء الآذان والأسماع، وتؤكد ذلك تقاليده الراسخة فى أوزانه وقوافيه، ومهما شرَّقنا أو غرَّبنا أو اتجهنا إلى الشمال أو الجنوب، فهو يتألف من قصائد موزعة على وحدات موسيقية يسمونها الأبيات، وتتحد جميع الأبيات فى وزنها وقافيتها اتحاداً تامًّا .

وظواهر كثيرة تدل على دوران هذه القصائد دوراناً شعبيًّا، فهى تنشَد فى كل حىّ، والشعراء يتداولونها بينهم بحيث يصبح ما ينظم فى غربى الجزيرة ينشَد فى شرقيها وبالمثل ما ينظم فى شرقيها يُنشَدُ فى غربيها، وقل ذلك بالقياس إلى كل قبيلة فى الشمال والجنوب، فليس هناك شعر خاص ببيئة دون بيئة، بل الشعر كله عام للجزيرة تشترك فيه شركة كبرى . ولعل هذه الشركة هى التى جعلت الشعر الجاهلى يدور حول معان واحدة، فما يقوله طرفة شاعر البحرين فى الناقة أو فى الفتوة يصبح عملة متداولة بين جميع الشعراء، وبالمثل ما يقوله امرؤ القيس على مقربة من تَيْماء فى الحجاز يتناقله جميع الشعراء سواء وصفه للفرس أو للغيث والمطر أو لمغامراته مع المرأة . وما يقوله عمرو بن كلثوم التغلبى فى شرقى الجزيرة وعنترة العبسى فى غربيها من أشعار حماسية يحاكيه جميع الشعراء . وكأنهم ينسبون إلى قبائل فى حياتهم ومواطنهم أما فى الشعر فينسبون إلى الجزيرة جميعها، وهو انتساب يتضح فى أن كل شاعر كان يغذو شعره بأجود ما سمعه أو حفظه من الشعر، وهو غذاء جعلهم يتواردون على معان واحدة كما أسلفنا، كما جعلهم يحاولون من حين إلى حين إعادة صياغة هذه المعانى صياغة جديدة، بحيث يضيفون إليها إضافات تروع السامعين على نحو ما يلاحظ مثلا فى تشبيه المرأة بالظبية، فشاعر يشير إلى الشبه بينهما دون محاولة لوضع خاص أو تفصيل يضيفه، وشاعر يشبه المرأة بها وهى تمدُّ جِيدها إلى شجر السَّلَم الناضر، وشاعر يجعل الشبه فى جيد كل منهما واستوائه وجماله، وشاعر يجعل الشبه فى حَور العين . ومعنى ثان تصويرهم

للرجال بالكواكب والنجوم ، فشاعر يجعل رجال قبيلته وشجعانها كواكب ونجوماً ساطعة لا تلم بها غَبَرة ولا قتمة . وشاعر يجعلهم كواكب ونجوماً مضيئة فى الليل البهيم ، وينفذ لَقيط بن زُرارة التميمى من خلال هذا الركام من الصور إلى قوله فى رجال قبيلته وساذتها :

نجومُ سماءٍ كلما غارَ كوكبٌ بدا كوكبٌ تأْوِى إليه كواكبُهْ
أضاءتْ لهم أحسابُهمْ ووجوهُهم دُجَى الليل حتى نظَّمَ الجَزْعَ ثاقبُه

وكأنه يجعلهم كواكب حقيقية تضىء الليالى المظلمة ، حتّى ليبلغ من ضوئهم ونورهم أن ينظم الثاقب فيه خرزَ الجزْع فى خيوطه وعقوده الجميلة . ويتناول النابغة هذا المعنى ويضيف إليه إضافة جديدة فى مديحه للنعمان بن المنذر صاعداً به درجات فوق ملوك الغساسنة إذ يقول :

وإنك شمسٌ والملوكُ كواكب إذا طلعتْ لم يَبْدُ منهن كوكبُ

وتنبه أسلافنا لهذا الجانب فى الشعر الجاهلى . ففتحوا له فى كتبهم باب السرقات ، غير ملتفتين إلى ما يشير إليه عند الجاهليين من دوران أشعارهم على جميع الألسنة بحيث هيأتْ لهذا التوارد الواسع على الصور والتشبيهات . ولعل مما يدل دلالة قاطعة على أن الشاعر الجاهلى مهما بعدت الشقة بينه وبين شعراء القبائل الأخرى كان يستظهر أشعارهم وأنها كانت تُتَداول تداولا واسعاً أننا نجد صوراً وعبارات يتبادلها الشعراء مع تباعد أوطانهم تباعداً شديداً . فإذا قال امرؤ القيس بالقرب من تَيْماء فى غربىِّ الجزيرة بيت معلقته المشهور :

وقوفًا بها صَحْبِى علىَّ مَطِيَّهم يقولون لاتهْلِكْ أسًى وتَجمَّلِ

وجدنا البيت يطير مع معلقته طيرانا مسرفًا فى البعد ، حتّى ينزل بأقصى الشرق من الجزيرة فى البحرين ، فإذا طرفة يكاد ينقله بحذافيره إلى معلقته قائلا :

وقوفا بها صَحْبِى علىّ مطيَّهم يقولون لا تهْلِكْ أسًى وتجلَّدِ

ومعلقة طرفة بدورها تطير هى الأخرى من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ويطير معها مطلعها الطريف المعروف :

لِخَوْلَةَ أَطلالٌ بِبُرْقةِ ثَهْمَدِ تلوحُ كباقى الوَشْم فى ظاهر اليَدِ

وهو يذكر ، ذكرى لا تبرح خياله ، أيامه الخوالى مع صاحبته خولة ، ويلمّ بالأطلال الباقية من هذه الأيام ، وتلمع أمام عينيه لمعانًا قويًّا ، ويحس كأنها ثابتة على الزمن وفى قلبه ثبات الوشم الذى يُغْرَز بالإبر فى ظاهر اليد ، فيظل أثره باقياً لا يزول ولا يحول . وتعجب المعلقة زُهيْراً المُزَنِىّ النسب الغطفانى النشأة والمَرْبَى فى غربىّ الجزيرة ، فيحاول أن يأخذ صورة الوشْم لنفسه فى معلقته ، إذ يقول عن ديار صاحبته :

ديارٌ لها بالرَّقْمَتَيْن كأنها مَرَاجِعُ وَشْمٍ فى نَواشر مِعْصَمِ

وزهير يحفر علامات الوشم فى المعصم بأقوى مما حفرها طرفة فى ظاهر اليد ، إذ يثبّتها فى نواشره أو عروقه وعصبه ، حتى لا تزول أبداً ، وكأنه لا يريد لأطلال صاحبته أن يلحقها شىء من الزوال أو الفناء . ويتداول الشعراء فى كل ركن من أركان الجزيرة هذه الصورة ، فيقول ربيعة بن مقروم الضبى فى وصف الأطلال :

تخال مَعارِفَها بعـــد ما أتتْ سَنتانِ عليها الوُشوما

المعارف : الرسوم والأطلال . ويقول المخبَّل السَّعْدى التميمى :

وكأَن ما أبقى البَوارحُ والْ أمْطارُ من عَرَصاتها الوَشْمُ

والبوارح : الرياح الشديدة . والعرصات : الساحات . ويقول عبد الله بن سَلَمة الغامدىّ الأزدىّ :

أمستْ بمُسْتَنِّ الرياح مُفِيلةً كالوَشْم رُجِّع فى اليد المنكوسِ

ومستن الرياح : مجراها . ومفيلة : مطموسة . والوشم المنكوس : المعاد مراراً . والأبيات التى صُوِّرت فيها الأطلال على هذا النمط بالوشم كثيرة .

وصورة ثانية فى وصف الأطلال لا تقلّ عن هذه الصورة كثرة ، بل لعل شاعراً نابهاً فى الجاهلية لم يلمّ بها ، ونقصد وصف رسوم الأطلال بأنها تشبه نقش الكتابة ، إذ نراه يدور على كل لسان ، فمن ذلك قول امرئ القيس :

لمن طَلَلٌ أبصرتُه فشَجانى كخطِّ زبورٍ فى عَسيبٍ يَمانى

والعسيب : سعف النخل ، وكانوا يسوّونه ويكتبون عليه . والزبور : الكتاب . وعلى شاكلة هذا البيت قول أبى ذُؤَيْب الهُذَلىّ :

عرفتُ الديـار كرَقْم الكتا ب يَزْبِرُهُ الكاتب الحِمْيَرِىُّ

يزبره : يكتبه . وإذا كان هذا الشاعر الحجازى شبه الأطلال بكتابات الكاتب الحميرى اليمنى فإن الحارث بن حِلِّزة شاعر بكر فى شرق الجزيرة شبَّهها بكتابات الكاتب الفارسى للمهارق أو الصحف ، إذ يقول :

لمن الديار عَفَوْنَ بالحُبْسِ آياتُها كمهارقِ الفُرْسِ

والحبس : موضع . والآيات : الآثار والأعلام . ويدخل غير شاعر على الصورة إضافة جديدة ، فيقول المرقش الأكبر من بنى قيس بن ثعلبة :

الدارُ قَفْرٌ والرسومُ كما رَقَّشَ فى ظَهْرِ الأديمِ قَلَمْ

والترقيش : التزيين والتنميق . والأديم : الجلد . ويقول سلامة بن جَنْدل التميمى :

لمن طَلَلٌ مثلُ الكتاب المنمَّقِ خَلاَ عَهْدُهُ بين الصُّلَيْبِ فمُطْرِقِ

والصليب ومطرق : موضعان . ويقول الأخنس بن شهاب التغلبى وهو من شرقىّ الجزيرة مثل سابقيه :

لإبْنةِ حِطَّانَ بنِ عَوْفٍ منازلٌ كما رقَّشَ العُنْوانَ فى الرَّقِّ كاتبُ

والرق : الجلد الرقيق . ويقول حاتم الطائى فى شمالى الجزيرة :

تعرَّف أطلالا ونُؤْيًا مهدَّما كخطِّك فى رَقٍّ كتابًا مُنَمْنَمَا

والنمنمة : التنميق . ويقول معاوية بن مالك من بنى عامر بن صعصعة فى غربى الجزيرة ذاكراً مكان الطلل وأنه أسفل من نميل ، وهو ماء بقرب المدينة :

من الأجزاع أسفلَ من نُمَيْلٍ كما رجَّعْتَ بالقلم الكتابا

كتابَ محبِّرٍ هاجٍ بصير ينمِّقهُ وحاذر أن يُعابا

والمحبر : المنمق . والهاجى : القارئ . وواضح أنه حاول أن يدخل إضافة على

الصورة حتى يستتم التنميق . وبالمثل يحاول لبيد العامرى ابن أخيه أن يضيف إلى الصورة إضافة جديدة ، إذ يقول :

وجلا السيولُ عن الطُّلول كأنها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها

والزبر : الكتب . فلا تزال السيول تجرى فى الطلول ، ولا تزال تترك وراءها كتابات وخطوطاً جديدة ، وكأنما الأطلال كتب لا تزال تجدِّد سطورها الأقلام .

ونكتفى بهذه الأمثلة من أشعار الجاهليين فى تشبيه الأطلال بنقوش الكتابة ، وهى لا تكاد تُحصى عندهم كثرة ، مما يدل أقوى الدلالة على الطوابع الشعبية لأشعارهم وكل ما تشتمل عليه من صور ومعان . ولهذه الطوابع الشعبية كلها بقية ، فمن المعروف أن أمثال الأمة تدخل فى آدابها الشعبية ، لأن جميع الأفواه تلوكها فى كل مكان ، يلوكها الشعراء وغير الشعراء ويلوكها الفصحاء وغير الفصحاء ، لأنها من عمل الشعب كله ، لا يختص بها أحد دون أحد . ولذلك كانت فى أكثرها مجهولة القائل ، لأن قائلها عادة من أبناء الشعب الذين لا يهمهم أن يُنْسَبَ إليهم هذا المثل أو ذاك ، أو بعبارة أخرى لا يهمهم أن ينسب إليهم هذا الفضل ، بل هم آخر من يفكر فيه . ومن أجل ذلك كانت الأمثال من أهم ضروب الآداب الشعبية لأنها فعلا تُنْسَبُ إلى الشعب كله ، ولأنها تدور على جميع الأفواه . وتلفتنا ظاهرة فى الأمثال الجاهلية ، هى أن طائفة منها اقتُبست من أشعار شعرائهم كقول طرفة :

ستبدى لك الأيامُ ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار مَنْ لم تزوِّدِ

والشطران جميعا كانوا يتمثلون بهما ودلالتهما واضحة . ومن ذلك قول زهير :

ومهما تكن عند امرئ من خَليقةٍ وإن خالها تَخْفَى على الناس تُعْلَمِ

ودلالة البيت على المثل المضروب واضحة . وتمثلوا بشطور أبيات كثيرة . من ذلك قولهم : « رضيت من الغنيمة بالإياب » يضربونه مثلا للشخص يشقى فى طلب الحاجة حتى تُعنِّيه ، وحتى يتمنى الخلاص منها سالما . وهو من قول امرئ القيس :

لقد طوَّفتُ فى الآفاق حتى رَضِيتُ من الغَنيمةِ بالإيابِ

ومن ذلك قولهم : « خلا لكِ الجو فبِيضى واصْفِرى » يضربونه مثلا للشخص

لا يجد أى حائل بينه وبين حاجته ، وهو مأخوذ من قول طرفة فى قبَّرة :

خلالكِ الجوُّ فبِيضِى واصْفِرِى ونَقِّرِى مـا شئتِ أن تُنَقِّرِى

ومن ذلك قولهم : « لا تَعْدَم الحسناء ذامًا » يضربونه مثلا على أن أحداً من الناس لا يخلو من شىء يُذَمُّ به ويُعاب ، وهو مأخوذ من قول الأعشى فى صاحبته قُتَيْلة :

وقد قالت قُتَيْلَةُ إذ رأتْنى وقد لا تَعْدَمُ الحسناءُ ذاما

وهو باب متسع فى الأمثال الجاهلية ، ويدل بوضوح على أن من أبيات الجاهليين ما بلغ من ذيوعه على جميع الأفواه والألسنة بل من اتساع شعبيته أن تحوَّل هو أو شطر منه مثلا يضربه الناس فى المواقف المختلفة ، وقد غاب عنهم اسم قائله ، إذ أصبح اسمه لا يعنيهم فى قليل ولا فى كثير ، إنما يعنيهم المثل الشعبى نفسه .

وأكبر الظن أنه قد اتضحت الطوابع الشعبية فى الشعر الجاهلى . إذ كان يدور فى جميع الألسنة دورانًا أتاح لأبيات وشطور منه أن تصبح أمثالا شعبية ، كما أتاح للشعراء أن يتمثلوا قصائده ويسيغوها بحيث اتحدت الصيغ فى أشعارهم أحياناً ، كما اتحدت التشبيهات والصور والمعانى ورسوم القصيدة وما تترجم عنه من الحياة الشعبية للقبائل . وكانت تشترك فيه جميع الطبقات رجالا ونساء ، وكانوا ينظمونه فى أعمالهم نهاراً ، كما كانوا ينظمونه فى سُراهم ليلاً حُداء . وكانوا ينشدونه جماعات ، تنشده النساء فى المآتم والأعراس والحروب وينشده الرجال فى التهليلات والتلبيات . وكان ينشَد بلغة واحدة فى جميع أرجاء الجزيرة ، هى الفصحى ، وهى نفس لغة الضاد التى لا تزال حية باقية على الدهر .